

سلسلة تحليلات الحرب والاستعمار

المؤسسة الأكاديمية الغربية والإرث الاستعماري: حدود الحرية!

حلا علي



كانون ثاني 2024

سلسلة تحليلات الحرب والاستعمار

تصدر عن مرصد السياسات الاجتماعية والاقتصادية

المحرر المسؤول: فراس جابر

تحليل (3):

المؤسسة الأكاديمية الغربية والإرث الاستعماري: حدود الحرية!

إعداد:

حلا علي

باحثة – جمعية نجوم الأمل لتمكين النساء ذوات الإعاقة

كانون ثاني 2024

مرصد السياسات الاجتماعية والاقتصادية

5 شارع السهل، رام الله - فلسطين

هاتف: 02-2955065

البريد الإلكتروني: almarsad@almarsad.ps

الموقع الإلكتروني: www.almarsad.ps

جميع الحقوق محفوظة ©

مرصد السياسات الاجتماعية والاقتصادية

2024

لماذا هذه السلسلة؟

تسعى سلسلة تحليلات الحرب والاستعمار إلى وضع حرب الإبادة الجماعية، التي ما زالت تَشَنُّ أساساً على القطاع، ضمن فهم أعمق وأوسع، بحيث يشتبك هذا الفهم مع الشبّكة المعقّدة من المفاهيم/ التّظريّات والعلاقات والمصالح التي تقوم بأدوار وظيفيّة وأيدولوجيّة محدّدة لإدامة استعمار الغرب، بما ذلك الاحتلال "الإسرائيلي". كما تسعى إلى توضيح موقع هذا الاحتلال ووظيفته ضمن هذه الشبّكة، بحيث نُقارب هذه الحرب من مفهوم استعماري، باستخدام الأدوات التّاريخيّة والجدليّة والنّقديّة، بما ينتج تحليلاً يربط بين موقع هذه الحرب وبين الممارسات الاستعماريّة التّاريخيّة.

تصدر هذه السلسلة عن مرصد السياسات الاجتماعيّة والاقتصاديّة وبمساهمات عدد من الباحثين/ات من شتى الحقول المعرفيّة والنّظريّة.

"أفترض أن إنتاج الخطاب، في كل مجتمع، هو في نفس الوقت إنتاج

مرآة، ومنتقى، ومنظم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات

التي يكون دورها هو الحد من سلطاته ومخاطره"

مشيل فوكو

تمثل الحرب على قطاع غزة تجسيدا لإبادة جماعية مستمرة يقوم بها الاحتلال الاستيطاني كجزء من أهدافه الأساسية المتمثلة بالمحو والإحلال، فترافق وجوده مع عدّة جرائم متواصلة ضدّ الفلسطينيين والفلسطينيات في جميع أماكن تواجدهم/ن، بدءاً من الحصار، والتّجويع، مروراً باستباحة القتل، وانتهاءً بالتّهجير والإبادة.

تستمر الحرب على القطاع منذ ما يزيد عن 90 يوماً، كاشفة عن الوجه الحقيقي لغرب مدّعٍ للحريّات والديمقراطية، الذي لم يستطع إخفاء مصالحه ومعايير المزدوجة، ومحاربه للشّعوب المضطّهدة بكافة الأشكال في سبيل فرض هيمنته، ربما كان هذا الوجه فيلنا، فيل الجنوب، الذي لم تكن هناك رغبة بالتّحديق به أو رؤيته، رغم وضوحه الآن وتاريخياً، وربّما لم يعد الآن مجالاً لعدم الإدراك، فهناك موجة شديدة من الغضب تجاه ازدواجية المعايير الغربية، وتلوّنها مع القضايا المختلفة، وفي ظلّ التّحليلات الكثيرة التي تترافق مع هذا الإدراك، من المألح ربما إعادة النّظر في كافة أوجه الغرب وما يصدر وصدر عنه.

يُنظر أحياناً للمعرفة على أنّها مرادفة للحقيقة، لها أسس وقواعد تتحلّى بالموضوعية، إلا أنّ تاريخ المعارف كغيره، جزء من تاريخ وسياقات المجتمعات التي لا تخلو من علاقات القوّة والمصالح، فتأثرت المعرفة كمنتج ومنظومة بهذه العلاقات وتشكّلت داخلها، فكانت تارة انعكاساً لها، وتارة أداة لتحقيقها.

عزّزت الهيمنة الغربية على العالم بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية، أو أنّها مؤسّست بشكلٍ أدق، بقيادة الولايات المتّحدة الأمريكيّة كقوّة منتصرة، وأنتجت نظام عالمي يتلاءم بشكلٍ تام مع المصالح والأطماع الاستعماريّة الرأسماليّة للغرب، ويضمن من خلال مجموعة من الأدوات استمرار هذه الهيمنة، أبرزها الحفاظ على سيادة الخطاب الاستعماري الذي اخترق كافة البنى بما فيها المؤسّسات المعرفيّة، التي شكّلت أحياناً أداة لإنتاج هذا الخطاب أو إعادة إنتاجه أحياناً أخرى، ولضمان استمراريّة هذا الخطاب كانت مراقبته وضبطه متطلباً.

منذ السّابع من تشرين أوّل/ أكتوبر 2023، تتعرّض المؤسّسات الأكاديميّة للانتهاك، انطلاقاً من محوريّة دورها في تصدير خطابات تحريريّة وتعزيز روح الاحتجاج والانتقاد للسلطة وأدواتها، وتواجه الآن حملة ممنهجة تنم عن رغبة واضحة في إسكاتها، كما تعرّضت العديد من الجامعات الفلسطينيّة في قطاع غزة للقصف المباشر، وتعرّضت العديد من الجامعات في الضّفة الغربيّة للمداهمات والاعتقالات لطلبها بالإضافة لحمات التّضييق.

تتعرّض المؤسّسات الأكاديميّة الغربيّة للتّضييق بعد الحرب على قطاع غزة، فتشير بعض التقارير التي أعدّها مجموعة من الأكاديميين/ات، أنّ الجامعات الغربيّة تستخدم "الاتهام بمعاداة السّامية" وسيلة للضّغط على الأكاديميين/ات والطلّبة لمنعهم من انتقاد جرائم الاحتلال، فيما اتّخذت بعض الجامعات إجراءات ضدّ الاحتجاجات على الاحتلال، وأشير إلى أنّ هذه الجامعات تعرّضت لضغوط وتهديدات بفقدان دعمها المالي، بحيث تُواجه بتهم معاداة السّامية،

كوسيلة لمنع انتقاد جرائم الاحتلال، فيما واجه العديد من الأكاديميين/ات التهديد والملاحقة القضائية، وحتى الفصل من الوظيفة.¹

يتناول هذا التحليل مقارنة الحرب على قطاع غزة وتداعياتها ارتباطاً بالمعرفة والسلطة، وتحديداً من خلال النظر لتداعيات الحرب على المؤسسات الأكاديمية الغربية، ومحاولة تفسير الهجوم الكبير مؤخراً عليها بعد السّابع من تشرين أول/أكتوبر، وخصوصاً بعد تصاعد حراك الطلبة الدّاعمين/ات للقضية الفلسطينية في حرم هذه الجامعات وخارجها.

ماضي مُستعاد!

1. جذور الخطاب الاستعماري في المعرفة الغربية

تدرك السّلمة بمفهومها الفوكوي² أنّ للمعرفة دورٌ كبير في خلق ذواتٍ حرة قادرة على المقاومة والاعتراض، لذلك عمدت إلى إخضاع المؤسسات المعرفية لخدمتها في خطوة تهدف للسيطرة على هذه الذّوات وتطويرها، وهذا ما سعى إليه الغرب خلال مرحلة "التّحديث"، وفي الوقت نفسه، هو من يرفع راية الحرّيات والحقوق! نعم، هو ذات الغرب الذي استعمر عبر تاريخه ما يقارب نصف العالم، وغالباً ما كان هذا مقنعاً للعديد من المجتمعات ولسنوات طويلة، ادّعى خلالها حصانة المؤسسات الأكاديمية والمعرفية أمام علاقات القوّة، من خلال تأسيسها وضبط أدواتها ووسائل نشرها، وتعريفها كوجه للحقيقة، والأداة "الوحيدة" للموضوعية وأيضاً منبع الحقوق والحرّيات، كانت الموضوعية (موضوعية المعرفة) مختزلة في مصالح سلطوية هذه الدّول، وترجمة لهيمنتها الاستعمارية، وعلى الرّغم من استمرار تصدير الغرب لهذه الصّورة، إلا أنّه واجه خلال تاريخه العديد من السّقطات التي أعادت تفكيك هذا الخطاب ومساءلته، إذ سرعان ما تهاوى راية الحرّيات تلك عندما يُدرك الغرب وجود تهديد مباشر أو غير مباشر لمصالحه الاستعمارية.

أعدت المصالح الكولونيالية تشكيل معالم العالم بعد الاستعمار الحديث الذي ترجع بداياته إلى القرن 15، حيث عملت القوى الاستعمارية إلى إعادة هيكلة العالم وبرمجته بما يتماشى مع مصالحها وأطماعها الكولونيالية، التي وصلت إلى حدّ توظيف المعرفة وأدواتها لخدمة التّبرير وتسهيل فرض الهيمنة الاستعمارية على الشّعوب المستعمرة، وفي تقسيم واضح للعالم، لمركز مُهيمن ودول مُهيمن عليها، يُمكن القول أنّ المعرفة انقسمت لاحقاً لمعرفة المركز متمثلة في الثقافة المركزية الأوروبية ونتائجها المعرفية وأدواتها، التي عُمت لتكون معياراً أساسياً لإنتاج وتقييم المعارف بصفة عامّة، ودول المحيط التي تستقبل هذه المعرفة أو تعيد إنتاجها، يمكن القول أنّ دول المحيط (الدّول المستعمرة/ما بعد المستعمرة) كانت أيضاً موضوعاً للبحث والدّراسة، ذلك الغريب الذي يجب على المواطن الأبيض أن يحمل عبء فهمه ودراسته "وتأهيله" أو "تحضيره" ليصبح هذا مبرره لاحقاً لفرض سيطرته الاستعمارية عليه بكافّة مستوياتها.

يوجد تزاوج واضح ما بين البنى المعرفية والبنى السلطوية، فساهمت الحداثة في إنتاج مفاهيم العقلانية الأوروبية التي ارتبطت بدورها بالمعرفة، إنّ هذه العلاقة الوطيدة ما بين المعرفة والسلطة، أنتجت نظاماً معرفياً معيارياً، صيغ ليكون

¹ "تقرير: الاتهام بمعاداة السامية أداة ضغط في الغرب" /الأناضول (9 كانون الأول 2023). الرابط الإلكتروني: <https://n9.ci/pyjh4/>

² السلطة بحسب تعريف ميشيل فوكو: مجموعة المؤسسات والأجهزة التي تمكن من إخضاع المواطنين داخل دولة معينة.

أداة من أدوات الكولونيالية³ على مستويين؛ الأول هو استخدام الأدوات المعرفية في محاولة تبرير الغزو الكولونيالي وتوظيف المعرفة والأيدولوجيا في تعزيز السلطة والاستفادة من هذه العمليات، والمستوى الآخر هو تضمين الخطاب الكولونيالي الحدائي الغربي في الإنتاج المعرفي بحيث يُعاد إنتاجه بشكلٍ ضمني حتى في المعرفة الناتجة عن دول الجنوب نفسها، بحيث يكون المستعمر مستبطناً لهذا الخطاب ومعيداً له.

رَوِّج الغرب عبر تاريخه لخطابه الاستعماري، وعمّمه من خلال مجموعة من آليات ضمنت انتشاره وضبطه، بحيث يضمن هذا الخطاب التّفوق الغربي وهيمنته على دول الجنوب، واستخدم مجموعة من الآليات التي تمكّنه من ضبط سيادة هذا الخطاب واستيطان العالم له، وبالتالي بقاءه وإعادة إنتاجه باستمرار.

يقول ميشيل فوكو: "السلطة والمعرفة تقتضي إحداهما الأخرى، ولا توجد علاقة سلطة دون تأسيس لحقل معرفي، ولا توجد معرفة لا تفترض ولا تقيّم في ذات الوقت علاقات سلطة"⁴ تعتمد عملية مراقبة الخطاب من خارجه على عدّة أدوات ضبط، وهي: (1) المنع والحظر: بمعنى منع التداول في بعض المضامين التي تشكّل تهديداً واضحاً للسلطة، (2) التّقسيم والرّفص، وهي معادلة تعتمد على تقسيمات هوياتية تتعلّق بثنائية الأنا والآخر، (3) إرادة الحقيقة، والتي تركز على الفصل وفرز ما هو حقيقة وخطأ؛ بحيث يحدث الفرز تبعاً لعلاقات القوة والسيطرة والهيمنة، مما يعزّز تقنيات المراقبة والهيمنة على البنى الأكاديمية ليسمح لاحقاً بتفسير الاحتلال الكولونيالي على أنّه مهمة حضارية إنسانية تهدف لتخليص هذه المجتمعات من بدائيتها ورجعيتها.⁵

لعبت العلوم الإنسانية دوراً كبيراً في تكريس هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية خلال القرنين 20 و21، إنّ المطّلع/ة على نصوص العديد من باحثين/ات ومنظري/ات الحداثة يمكنه/ا الانتباه لاستخدامهم لمصطلحات متحيّزة، ومجموعة من الأحكام على الشّعوب غير الغربية، والنتيجة من تبنيّ واعٍ وغير واعٍ للخطاب الغربي الكولونيالي، إلّا أنّ الموضوع لم يقف عند التّبيّي؛ فساهمت العديد من العلوم في تكريس أدواتها للتّبرير والدّفاع عن هذا الخطاب، دافعت الأنثروبولوجيا في بداياتها، على سبيل المثال لا الحصر، عن الخطاب الاستعماري وخدمت الهيمنة الاستعمارية من خلال التّرويج للاستعمار على أنّه عملية تحديث للمجتمعات المستعمرة.

تظهر إرادة الحقيقة هنا إذاً، من يقول الحقيقة؟ وهل الحقيقة حالة واحدة محايدة؟ تستمدّ الحقائق من المعارف، المعارف التي تُختزل في مجموعة من الأشخاص والمؤسسات المهيمنة وهي بحسب فوكو وسيلة لضبط الخطاب من داخله التي أسماها وظيفة المؤلّف التي تحصر الخطاب المعرفي في مؤسسات محدّدة وأشخاص معيّنين،⁶ وتتساوى عند ذلك الحقيقة مع آرائهم ومصالحهم، وتصبح خطاباتهم هي خطابات الهيمنة ولا تتوقّف، بل تأخذ أهمية كبرى، فتبقى مرجعية أساسية لأي نظريات جديدة فتستند عليها بدلاً من إنتاج خطاب مضاد، مما يسمح بسيطرتها واستمرارها، طالما لم يكن هناك خطاب آخر معاكس في المقابل، ولكن لن يكون هذا الخطاب قابلاً للوجود لأنّه ببساطة مرفوض ومشوّه وبالتالي هامشي!

³ باسم خندقجي، "أثر سياسات المعرفة في الخطاب البحثي الأكاديمي،" مجلة الدراسات الفلسطينية عدد 128 (2021). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/w2qve7>.

⁴ علي مقلد، مترجم، المراقبة والمعاقبة ولادة السجن (بيروت: مركز الإنماء القومي: 1990).

⁵ خندقجي، أثر سياسات. مرجع سابق.

⁶ المرجع السابق.

توزّعت الأكاديميا الأمريكية في خدمة الكولونيالية الأمريكية، وصل ذلك إلى تربّع الأكاديميين المتوطنين في المناصب العليا في الجامعات، مثل والت روستو الذي حصل على منصب سياسي أيضاً، إذ أصبح مستشاراً للأمن القومي لدى جون ف. كنيدي، كما قام بتطبيق خطط الولايات المتحدة في احتلال فيتنام، وكانت الإدارة الأمريكية دوماً ولا تزال مرحبة بالأكاديميين/ات الذين يخدمون مصالحها،⁷ لم تكن الولايات المتحدة هي الوحيدة التي وظّفت الأكاديميا والمعرفة لخدمتها، ففي عام 1935 أصدر مجموعة من الأكاديميين الإيطاليين بياناً بعنوان: "الدفاع عن الغرب"، وذلك لتبرير العدوان الإيطالي على إثيوبيا، ووصف البيان هذا البلد بـ "مزيج من القبائل الجاهلة"،⁸ كما يزخر التاريخ الغربي بأمثلة مشابهة لا يتسع المجال لسردها هنا.

كان لحرب فيتنام أثراً كبيراً على هزّ ديمقراطية الولايات المتحدة الأمريكية، فتكفي صور طفلة النابلم المخدّدة إلى اليوم لتلطّيخها، انعكست هذه الحرب على المؤسسة الأكاديمية الغربية؛ حيث شهدت الجامعات احتجاجات كبيرة مناهضة للحرب⁹، كما أخذت فضيحة انخراط مجموعة من علماء الأنثروبولوجيا البارزين على منحة سرّية من وزارة الدفاع لإجراء أبحاث سرّية والتّخطيط للعمليات العسكرية صدى كبير،¹⁰ أحدث ذلك كله تحوّلاً في مختلف المدارس المعرفيّة، كما حدث تحوّل جذري على الأنثروبولوجيا وبدأ التعمق في دراسات ما بعد الاستعمار مع ظهور المدرسة ما بعد البنيويّة.¹¹

شكّلت الحرب على قطاع غزّة اليوم تغيّراً كبيراً في الرّأي العام العالمي، فكانت الجامعات دوماً مركزاً للاحتشاد والتّجمع والاحتجاج، ولعبت دوراً مهماً في تحريك الشّارع وشكّلت امتداداً له، ونتيجة فُهم هذا الدّور للجامعات، عملت السّلطة بأدواتها المختلفة على قمع الخطاب المناهض للخطاب الاستعماري الغربي الداعم للصّهبيونية ومؤيديه، ووجّهت ضربات متتالية بمختلف الأدوات والسّبل للمؤسّسات الأكاديميّة، وتحديدًا تلك المؤسّسات الكبرى التي تتمتع بتأثير عالٍ.

II. مأسسة الحرّيات والحقوق!

من خلال تأسيس مجموعة من المنظّمات الحقوقية العالمية، وتصديرها كنموذج لحماية الحرّيات والحقوق، عزّز الغرب مصالحه الاستعماريّة، إذ أسّست هذه المنظومة كأداة لتنفيذ السّياسات الاستعماريّة، ودعمًا لهيمنة الخطاب الغربي، وعلى الرّغم من انضمام العديد من الدّول لها إلا أنّ اليد العليا بقيت للدّول الغربيّة، فعلى الرّغم من استحواده على هذه المنظومة بالمعنى المادّي والمعنوي، إلا أنّ التّعامل معها كان معمولاً. فلم تكن مجرد حقوق مجرّدة، ففي كثير من الأحيان كانت شروطاً أساسيّة للعلاقات بين الدّول الغربيّة وبعض الدّول وشروطاً لتمويل البعض الآخر، مما دفع العديد من الدّول الانضمام لهذه الاتّفاقيّات الحقوقية تحت إطار الديمقراطيّة وحماية الحرّيات، ولكن سرعان ما تتحوّل هذه الحرّيات إلى حبل خانق يلتف حول كل من يخالف المصالح الاستعماريّة والرأسمالية الغربيّة، ليعاد تأويلها بطرق مضللة،

⁷ روجر هيوكوك وآخرون، *البحث النقدي في العلوم الاجتماعيّة مدخلات شرقيّة – غربيّة عابرة للاختصاصات* (بيرزيت: معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية – جامعة بيرويت ومعهد علم الإنسان – الأكاديمية النمساوية للعلوم: 2011).

⁸ "ماذا تبقى من الغرب"، رمان (15 كانون الأول 2023). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/tgd01>.

⁹ William Coltrane, *Higher Education, and Anti-Vietnam War Demonstration: Comparing Occurrences and Administrative Responses* (Texas: Texas Tech University, 1992).

¹⁰ Terence Turner, "War and the Anthropologist: Why an Academic Society Continues to Agonize Over Clandestine Research," *Cornell University* (April 14, 2008). Website: <https://n9.cl/8nvhg>.

¹¹ "تحولات الأنثروبولوجيا ومجالات بحثها"، *الهدف* (27 أيار 2021). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/61gxv>.

وتصبح هذه الحرّية أداة للعقاب، فلم يكن انضمام الدّول لهذه المنظّمات إلا تعزيراً لسلطتها وسلطة الغرب الديمقراطي، وكان من ضمن الأمثلة الأهم على رعاية الغرب للحرّيات والديمقراطية في العالم جهدها الضّاري لتحقيق الديمقراطية والحرّيات في العراق!

ظهر التّرويج للغرب كنموذج لهذه الحرّيات من خلال العديد من الوسائل منها الإعلام والأكاديميا نفسها، كما بدأت الجامعات بتعريف قيمها بأنّها تتبنّى سياسة الحرّية الأكاديمية وحرّية الفكر ومبادئ الديمقراطية، في سعي منها للتّرويج لنفسها، ودوماً ما تلقت الجامعات العالمية إقبالاً من الطّلبة والأكاديميين/ات من كافة أنحاء العالم، وذلك نتيجة لهذا التّرويج الهائل الذي تقدّمه، بالإضافة للامتيازات التي تمنحها هذه الدّول لخريجي هذه الجامعات داخلها، وما تمنحه لهم من رأسمال رمزي يفتح لهم فرصاً أوسع في سوق العمل.

ترتكز الحرّيات الأكاديمية بحسب القوانين الغربيّة على العديد من المبادئ والمعايير الدّولية لحقوق الإنسان، التي تنصّ على حرّية الرأي والتعبير، والحقّ في التّعليم؛ حيث تنصّ المواثيق الدّولية على حماية الحرّية الأكاديمية، من خلال الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والعهد الدّولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، والعهد الدّولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، والعهد الدّولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية،¹² تنصّ المادة رقم (13) من العهد الدّولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الحقّ في التّعليم، كما ترى لجنة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية: أنّه لا يمكن التّمتع به إلا إذا كان مصحوباً بالحرّية الأكاديمية للموظّفين والطلّبة". أمّا عن الاستقلال الدّاتي للجامعات: فيجب أن تكون متنسقة مع أنظمة المساءلة العامّة،¹³ ومع ذلك لم يكن لهذه الحقوق والحرّيات في الجامعات والميادين العامّة صدى بعد السّابع من تشرين الثاني/ أكتوبر!

III. علاقات قوّة يحركها رأس المال

يجب ألاّ يتم إغفال أسس السّلطة عند ربطها بالمعرفة، في عالم اليوم، السّلطة هي سلطة رأس المال، فتستمد الدّول قوّتها وسلطتها السياسيّة من موقعها في علاقات رأس المال، وتتخالف مع رأس المال لتحقيق مساعٍ مشتركة لفرض الهيمنة المطلقة وتحقيق أكبر قدر من المنفعة.

بالرغم من الدّور البارز للسّلطة السياسيّة في قمع الدّاعمين/ات للقضيّة الفلسطينيّة، لعب أصحاب رؤوس الأموال أدواراً مشابهاً في قمع الخطاب المناهض للإبادة الجماعية والحرب على قطاع غزّة، ومن ضمنها جماعات الضّغط الصّهيونيّة التي تعدّ أشهرها في الولايات المتّحدة (إيباك)، والتي تمارس ضغوطاً كبيرة على السّياسيين الأميركيين/ات لتأييد الاحتلال الصّهيوني، ومن المهم هنا التّذكير بأنّ جماعات المصالح تلتقي مصالحها مع مصالح الدّولة الأميركيّة، فلا يزال المشروع الصّهيوني في فلسطين من أهم مشاريع الولايات المتّحدة في الشّرق الأوسط، وهو مشروع استعماري وليد من دولة استعماريّة الأصل، جماعات الضّغط هذه لم تكن موجّهة فقط ضدّ السّياسيين، بل طالت أيضاً المؤسّسات الأكاديميّة والأكاديميين/ات أنفسهم.

¹² "Academic Freedom and its Protection Under International Law" *Scholars at Risk Network* (October 5, 2023). Website: <https://n9.cl/bxzn8>.

¹³ Ibid.

منظمة كناري، هي منظمة إلكترونية تدعي توثيقها لبيانات الأفراد والمنظمات التي تروج "لكراهية اليهود" في الولايات المتحدة و"إسرائيل"، ومكافحة أنشطة المنظمات المنخرطة في حركة مقاطعة "إسرائيل" وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات، وتقوم بإنشاء لوائح سوداء كما تسميها تضع فيها أسماء الطلبة الذين كان لهم مواقف داعمة للقضية الفلسطينية، ولم يقتصر نشاط هذه المنظمة أيضاً على رصد الطلبة عبر موقعها، بل وصل حد التهديد على أرض الواقع؛ فتسلل اثنان منهم إلى حرم جامعة جورج واشنطن، في عام 2018، في اليوم الذي كان من المقرر أن يتم خلاله التصويت على قرار يدعو إلى سحب الاستثمارات من الشركات التي تستفيد من الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان الفلسطيني، حيث ظهر رجلان يرتديان شعار المنظمة في حرم الجامعة وقاما بالتهديد بأنهما سيعلمان من قام بالتصويت وسيتصرفان على هذا الأساس.

تتعرض الجامعات للتهديد بسحب المانحون لملايين الدولارات من الخطط التمويلية المخطط لها لمعاقبة الجامعات الأمريكية، "دعا المتبرعان مارك رومان من شركة (Apollo Global Management) ومؤسس شركة (Limited Brands) ليزلي ويكسندر، الجامعات الأمريكية إلى إدانة حماس، واتخاذ إجراءات أكثر صرامة تجاه الطلبة المحتجين ضد إسرائيل،" مما دعا عدد من رؤساء الجامعات إلى إدانة حماس في موقف واضح، في تجاهل واضح لمعايير "الحياد" الأكاديمي الذي يجب على المؤسسات الأكاديمية الالتزام به، قالت ليز ماجيل رئيسة بنسلفانيا "نقف بشكل قاطع ضد الهجمات الإرهابية التي تشهدها حماس في إسرائيل وضد معاداة السامية" كما اعتذرت عن أن موقفها جاء متأخراً، متأخراً بالنسبة للمانحين، بمن فيهم رونالد لودر، الذي انتقد مهرجان الأدب الفلسطيني الذي أقيم في الحرم الجامعي، وقال أنه سيسحب التمويل، ومن بين الآخرين الذين سحبوا التمويل ديفيد ماجرمان، وجوناثون جاكوبسون، وجون هانتسمان السفير الأمريكي لدى الصين والحاكم السابق لولاية يوتا.

قال ويكسندر الذي سمي مبنى باسمه في كلية كينيدي للعلوم الحكومية بجامعة هارفارد، في رسالة إلى مجلس المشرفين في الجامعة، "أنه يلغي علاقاته المالية رسمياً في ضوء فشل الجامعة الدرع في اتخاذ موقف واضح ضد جرائم القتل الوحشية ضد المواطنين الإسرائيليين".¹⁴

قاد الملياردير بيل أكمان حملة ترهيب واسعة ضد مناهضي الاحتلال في الجامعات الأمريكية، وبعد أكمان من أغنى 1000 شخص في العالم، باعتباره أحد أبرز الداعمين لجامعة هارفرد، سعى منذ السابغ من أكتوبر إلى الإدلاء بتصريحات داعمة لإسرائيل، وشن هجوماً على الطلبة الداعمين للقضية الفلسطينية، وهاجم الجامعة بشكل مباشر، مما دفعها لاتخاذ إجراءات تجاه الاحتجاجات.¹⁵ يدل هذا على قدرة مانح ثري واحد التأثير على جامعة كاملة بإدارتها ومدرسها وطلبها.

نشرت 33 منظمة طلابية بياناً يُدين ما يرتكبه الاحتلال من مجازر في قطاع غزة، قام على إثره أكمان بمطالبة الجامعة بإظهار أسماء الطلبة الموقعين على البيان، وعندما رفضت إدارة الجامعة ذلك، قام بنشر 30 اسماً لطلبة داعمين

¹⁴ "US Universities Lose Millions as Donors Pull Funding Over Hamas Stance" Financial Times (October 19, 2023). Website: <https://n9.cl/uxcl>.

¹⁵ "الملياردير بيل أكمان يقود حملة ترهيب وتحريض ضد مناهضي الاحتلال في جامعات أمريكية" *الترا فلسطين* (5 كانون الأول 2023). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/cf2uk>.

للقضية الفلسطينية وضعبها على شاحنة جابت شوارع المدينة،¹⁶ كما استقال زوجان مليارديران "إسرائيليان" سبق وتبرعا بـ 30 مليون دولار لجامعة هارفرد، من مجلس إدارة الجامعة احتجاجاً على فشل الجامعة في كبح جماح الطلبة.¹⁷ تُمثّل هذه الممارسات شكل أساسي من أشكال رفض الخطاب المناهض للاستعمار، وحظره باستخدام سلطة رأس المال، من خلال التهديد المباشر بسحب التمويل، وقطع العلاقات بشكلٍ دائم مع هذه المؤسسات، وتشويه كل من يسمح بهذا الخطاب وعزله.

حريّات أكاديمية مقموعة في الجامعات الغربيّة

شعر الغرب بتهديدٍ واضح بعد تضامن الرأى العام مع القضية الفلسطينية ورفض الجرائم في القطاع، خصوصاً مع تصاعد المظاهرات والاحتجاجات في الجامعات، فشنت حملات متعدّدة لوقفها ومنعها ومعاقبة مرتكبيها، من خلال منظومة قمع متكاملة، تهديدات مباشرة من المانحين، وحملات من مؤسسات صهيونية، وضغوط مباشرة على إدارة الجامعات باتخاذ إجراءات ضدّ أيّ احتجاجات داخلها، وفي حال لم تستجب الإدارات تُعزل وتتدخل قوى الدولة بشكلٍ مباشر لوقفها، أدوات متعدّدة ومصالح واحدة.

بالرغم من الحديث المستمر عن اللاتقليديّة في الأفكار والطّروحات في الجامعات الأمريكيّة، إلاّ أنّه وخلال الحرب على قطاع غزّة، شهدت الجامعات الأمريكيّة ومنذ الشهر الأوّل للحرب موجات قمع وترهيب ضدّ الطلبة الذين أبدوا دعمهم للقضية الفلسطينية، إذ تعرّض هؤلاء النشطاء للمضايقات والتّشهير والتهديدات بالفصل والاعتقال، وعلى الرّغم من أنّ هذه الجامعات كانت بؤراً للنشاط السّياسي الدائم، إلاّ أنّ الطلبة يرون أن محاولاتهم للتعبير عن تضامنهم مع الشعب الفلسطيني مدانة وتوصف بـ "معاداة السّامية"¹⁸، أقرّ مجلس الشيوخ الأمريكي قراراً يصف الجماعات الطلابيّة الفلسطينيّة في عدّة جامعات بأنّها "معاداة للسّامية ومستتهجنة أخلاقياً"، كما أمرت إدارة بايدن وزارة العدل ووزارة الأمن الداخلي ووزارة التّعليم بالتعاون مع جهات الإنفاذ القانون في الحرم الجامعي، بالتحقيق في الحوادث المعادية للسّامية.¹⁹ قدّم الطلبة في جامعة هارفرد بياناً طالبوا فيه الجامعة بالكشف عن استثماراتها مع الاحتلال وطالبوها بسحبها، إثر ذلك تصاعدت الإدانات من الطلبة اليهود المؤيدين للاحتلال وكذلك خريجي الجامعة ومانحها، مما دفع رئيسة الجامعة لكتابة بيان إدانة لحماس بشكلٍ واضح، إلاّ أنّها رفضت دعواتهم لتأديب الطلبة المؤيدين التزاماً بأنظمة الجامعة ولوائحها، مما أطلق حملة وطنية تمّ فيها تشويه سمعة الطلبة وطلب منهم سحب تأييدهم للبيان.²⁰

تعرّضت الهيئة التّدرسيّة في الجامعات الغربيّة من الأكاديميّين/ات الداعمين لهجمات واسعة النّطاق، فتعرّض جوزيف مسعد الأستاذ البارز في السّياسة العربيّة الحديثة والتّاريخ الفكري في جامعة كولومبيا لهجمة شرسة، حيث وقع 47000

¹⁶ المرجع السابق.

¹⁷ "كيف يتم قمع الناشطين المؤيدين لفلسطين في الجامعات الأمريكية؟" *الوفاق* (8 تشرين الثاني 2023). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/tf4jw>.

¹⁸ "كيف يتم قمع الناشطين المؤيدين لفلسطين في الجامعات الأمريكية؟" *الوفاق* (8 تشرين الثاني 2023). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/tf4jw>.

¹⁹ المرجع السابق.

²⁰ المرجع السابق.

شخص على عريضة تُطالب بفضله بعد كتابته لمقال حول الحرب على غزة،²¹ كما فصل أستاذ علم الاجتماع السياسي ديفيد ميلر من جامعة برينستون بعد إدانته بمعاداة السامية، وذلك على إثر دعمه للقضية الفلسطينية.²²

استجابت العديد من الجامعات الأمريكية للضغوط وقامت باتخاذ إجراءات تجاه الطلبة الداعمين/ات، فأوقفت إدارة معهد ماساشوستس للتكنولوجيا عدداً من الطلبة، بعد تظاهرتهم/ن على الحرب على القطاع، وإضرابهم داخل أحد مباني الجامعة، كما أرسلت رئيسة المعهد رسالة إلى جميع الطلبة تحدد فيها حدود الاحتجاج ووصفت المظاهرات المؤيدة للفلسطينيين بأنها "تخريبية"، كما حضرت جامعة برندينز مجموعة طلابية مؤيدة للفلسطينيين، فيما اعتقل 20 من طلبة جامعة براون، كما علقت جامعة كولومبيا عمل جمعيتين طلابيتين بعد تنظيمهما احتجاجات طالبت بوقف إطلاق النار في القطاع، واتهمت الجامعة الجمعيتين بانتهاك السياسات الجامعية.²³

لم تكن هذه الممارسات القمعية مقتصرة على الجامعات الأمريكية، إلا أنها كانت أكثر حدة لمصلحتها المباشرة المتمثلة بوجود الاحتلال، إلا أن الجامعات الغربية بشكل عام شهدت أيضاً ممارسات قمعية تجاه الاحتجاجات ضد الحرب على غزة، فاجتمع عددٌ من الطلبة في جامعة برلين للتعبير عن رفضهم للحرب على قطاع غزة، في إحدى القاعات للتعبير عن رفضهم/ن للهجمات الإسرائيلية واحتجاجهم/ن على الموقف المحايد لإدارة الجامعة، قامت على إثر ذلك إدارة الجامعة بطلب إخلائهم للقاعة، ولأن الطلبة لم يستجيبوا للدعوة واستمروا في وقفهم/ن، دخلت قوات الشرطة الألمانية إلى الحرم الجامعي وأجبرت الطلبة على المغادرة بالقوة،²⁴ كما أطلق رؤساء الجامعات الفرنسية تحذيرات لطلابهم من التضامن مع الفلسطينيين أو المقاومة، إذ حذر مدير معهد اللغات والحضارات الشرقية مُدرسي وطلبة المعهد من إظهار الدعم للفلسطينيين/ات وتوعدهم بعقوبات كبيرة قد تصل للفصل في حال قيامهم بذلك،²⁵ وفي ألمانيا أعلنت وزيرة الداخلية الألمانية نانسي فيزر تأييدها لطرده داعمي حركة حماس خارج ألمانيا، فيما أيد زعيم الحزب الاشتراكي هذا الموقف وطالب الجاليات المسلمة بإدانتها.²⁶

يعتمد على السياق!

عقب تأييد العديد من الطلبة في الجامعات الأمريكية للقضية الفلسطينية ورفضهم/ن للإبادة الجماعية لقطاع غزة، بدأت حملة ضخمة ضد النقاشات الأكاديمية الأمريكية، آخرها وأكبرها كان فتح الكونجرس الأمريكي تحقيقاً مع رئيسات

²¹ المرجع السابق.

²² "ماذا قال ديفيد ميلر أستاذ علم الاجتماع المفصول من جامعة برينستون لدعمه فلسطين" نبض (5 كانون الثاني 2024). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/ouz0g>.

²³ "التوتر يتصاعد في جامعات أمريكية بسبب الاحتجاجات على حرب غزة"، الجزيرة (11 تشرين الثاني 2023). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/wc3z7>.

²⁴ "بناء على طلب الإدارة.. الشرطة الألمانية تفتح جامعة وتعتدي على الطلاب لفض وقفة داعمة"، يورو نيوز (17 كانون الأول 2023). الرابط الإلكتروني:

<https://n9.cl/w2hn2>.

²⁵ "يريدون تصفيتهم جسدياً.. كيف تلاحق السلطات الفرنسية المتضامنين مع فلسطين؟" تي آر تي عربي (14 تشرين أول 2023). الرابط الإلكتروني:

<https://n9.cl/bpmkc>.

²⁶ "ألمانيا تتعهد بطرده مؤيدي حماس وتطالب الجاليات المسلمة بإدانتها"، الجزيرة (15 تشرين أول 2023). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/4uei56>.

ثلاث جامعات أمريكية هن: رئيسة جامعة هارفرد، ورئيسة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ورئيسة جامعة بنسلفانيا، وهي بالمناسبة من أكبر الجامعات الأمريكية.

خلال الجلسة سألت النائبة الجمهورية "إليز ستيفانيك" هل الدّعوة إلى الإبادة الجماعية لليهود تنتمك قواعد التّنمر والتحرش في الجامعات، في إشارة للشعارات التي ردّدت خلال المظاهرات الدّاعمة للقضية الفلسطينية، طلبت النائبة الإجابة بـ نعم أو لا فقط، وكانت طريقة طرحها للأسئلة مضللّ، إذ قرّرت أنّ مفهوم "الانتفاضة" هو مفهوم مواز للإبادة الجماعية، كما قالت أنّه في إحدى المظاهرات للطلّبة استخدم "الحل الوحيد هي الانتفاضة"، كانت الجلسة موجّهة لإدانة الرّئيسات الثلاث بشكلٍ واضحٍ بمعاداة السّامية، وذلك تبعاً لرّدّهن على اتّهامات ستيفانيك بـ "هذا يعتمد على السياق".²⁷

في تقرير صحفي نشرته صحيفة الجارديان يشير الكاتب إلى ما قامت به ستيفانيك إلى أنّه: "نصبت لهنّ كميناً"، ويشير إلى أنّها نجحت من خلال طريقة طرحها للأسئلة وتحديدها الإجابة بـ نعم أو لا، وأيضاً عدم السّماح لهنّ بالتّبرير، في إيقاعهنّ في هذا الكمين، حيث بدت إجابتهنّ متناقضة،²⁸ ذلك على الرغم من كون الإجابات المقدّمة تنسجم مع أنظمة ولوائح الجامعات المتعلّقة بالحرّيات الأكاديمية للطلّبة.

أثار هذا الرد سخط عارم ودعوات للاستقالة انتهت باستقالة رئيسة جامعة هارفرد. نعم، لا مكان للسياق عندما يكون الحديث عن المصالح الاستعمارية لتلك الدّول ولا مكان للحرّيات والتّمحيص، كانت النائبة بانتظار إجابة لا وذلك لإدانة الرّئيسات الثلاث بشكلٍ مباشرٍ بمعاداة السّامية ومطالبتهنّ بالاستقالة، إذ شهدت الجامعات خلال فترة رئاستهنّ ممارسة الطّلبة لحرّية التّعبير التي يلوح بها الغرب منذ سنوات، ولكن يبدو أنّها لم تكن في الاتّجاه الصّحيح، ولذلك عملت النائبة بشكلٍ دؤوب على طرح الأسئلة المضلّلة والنّقاش المليء بالمغالطات من أجل الإيقاع بهنّ.

هل نرى ويرى العالم الفيل أخيراً

شكّلت المؤسّسات المعرفية منذ البداية ادعاءً رمزياً للعقلانية والحقيقة، وبدأت هي بتشكيل هذه الثنائيات أو تبنيها، ورسم صورة الآخر غير الأخلاقي، الغوغائي المنحدر من أدنى السّلم التّطوّري البشري، وعلى الرّغم من تعديل هذا الخطاب ليكون أقلّ حدّة وأكثر قدرة على المراوغة، إلّا أنّها بقيت داعمة لبقاء الخطاب الاستعماري واستمراره، فسمحت لها من الحرّيات طالما لم تهدّد تلك الحرّيات الخطاب الاستعماري، ليصبح هو الحدّ الفاصل، والمحدّد الأساسي لسقف الحرّية الذي لا يمكن تجاوزه، فعملت مستجيبة للضّغوط أو بدونها، على حظر الخطاب المناهض للاستعمار إمّا بشكلٍ مباشر، أو من خلال تصدير خطاب مضاد يروّج بشكلٍ مضللّ لخدمة مصالح الاستعمار، وظهر ذلك من خلال استخدام تعبير "معادات السّامية"، و"حقّ إسرائيل في الدّفاع عن نفسها"، في تبرير ما يقوم به الاحتلال من جرائم،

²⁷ طارق الشامي، "صراع حرية التعبير يتفاقم بين جامعات أمريكا والكونجرس بسبب حرب غزة"، *الندبيندنت العربية* (13 كانون الأول 2023). الرابط الإلكتروني: <https://n9.cl/6gij8>.

²⁸ "What's Behind the Antisemitism furor over college Presidents' Testimony?" *The Guardian* (December 12 2023). Website: <https://n9.cl/br0w6>.

وتكرار الرواية الإسرائيلية المضلّلة، خصوصاً من خلال استحضار المحرقة والنّازية في توصيف المقاومة الفلسطينية، والتي رددتها عدد كبير من السياسيين/ات والإعلاميين/ات.

في صحوة عالميّة واضحة، سجّلت الاحتجاجات على جرائم الاحتلال انتشاراً واسعاً، ربما ارتقت لتشكيل خطابٍ مضاد على مستوى عالٍ، ومهدّداً بشكلٍ كبير الخطاب الاستعماري، خصوصاً مع استمرار المظاهرات الضّخمة في عواصم أكثر الدّول دعماً لـ "إسرائيل"، مما جعل السّلطة السّياسيّة تتدخّل بشكلٍ مباشر في عمليّة قمع الدّاعمين/ات وتجرّيمهم.

هل من الممكن اعتبار أنّ المدافعين/ات من الأكاديميين/ات عن جرائم الاحتلال مدافعون غير واعون للسّياق؟ أو أنّ هذا الدّفاع غير مرتبط بمصالح شخصيّة مع السّلطة أو رأس المال؟ هل يمكن أن نرى سلافوي جيغيك مثلاً غير قادر على فهم بدهة القضية الفلسطينية؟ والفرق الكبير بين المستعمر والمستعمر الذي ساوى بينهم؟ أم أنّ دايفيد بيناتار الذي وصف الدّاعمين للقضيّة الفلسطينية بأنهم يقومون بـ "لوم الضّحيّة" قاصداً تحميل "إسرائيل" مسؤوليّة هجمات حماس،²⁹ في خطاب مضلّ خارج عن مفكّر جنوب إفريقي عانت بلاده من ويلات الاستعمار لقرن كامل ولا تزال تعاني من تبعاته! إنّ تأثير مثل هذه المواقف يصبح مؤثراً بدرجة كبيرة عندما يخرج عن أكاديميين/ات بارزين/ات أو مؤسّسات أكاديميّة ذات وزن، وهذا يفسّر الهجوم الكبير من السّلطات السّياسيّة الذي يتعرّض له الأكاديميون/ات والجامعات الدّاعمة للقضيّة الفلسطينية، ويفسّر ازدياد حدّة ردود الأفعال على الجامعات الأبرز والأكثر شهرة.

سواء كان الأكاديميون المدافعين اليوم عن الاحتلال هم منتفعون من السّلطة السّياسيّة الدّاعمة له، أم أنّهم مهّدون بخسارة امتيازاتهم التي تمنحها لهم هذه السّلطة، فإنّ الوقت قد حان للكشف عن وجه الغرب الحقيقي، من خلال فهم أدواته في فرض الهيمنة، ليس فقط من طرف المجتمعات العربيّة وإنّما عالمياً، والتّخلي عن فكرة اعتباره ومؤسّساته الأكاديميّة نموذجاً، بحيث تكفّ الجامعات الفلسطينية والعربيّة عن التّعامل مع الجامعات الغربيّة كنموذج للاحتذاء به. على الأكاديميين/ات الفلسطينيين/ات والمتضامنين القيام بدورهم المعرفي والأخلاقي في دعم القضية الفلسطينية وتعزيز رؤية الاستعمار الاستيطاني على حقيقته؛ جزءاً لا يتجزأ من منظومة الاستعمار الغربي ومصالحه، مما يدفع باتجاه تعزيز الأدوات المعرفيّة التقديّة وتوظيفها في تعزيز الخطاب المناهض للاستعمار والانفصال عن المؤسّسات المروّجة للخطاب الاستعماري، بما يعيد تشكيل روابط وعلاقات جديدة داعمة لمناهضة الاستعمار، تساهم في الكشف عن الخطاب الاستعماري ودحضه، والخروج من قيود التّمويل والعلاقات التي يفرضها الغرب.

يُشكّل فهم هذا السّياق للأكاديميا العربيّة محطة مهمة لإعادة موضعة الخطاب المناهض للاستعمار، وإعادة النّظر في المعرفة ومؤسّساتها ضمن سياق ما بعد بنوي أوسع يكشف تحيّزاتها ومصالحها وحقيقتها، بما يسمح بالانفصال عنها وتعزيز خطاب تحرري مناهض للخطاب الاستعماري.

²⁹ أباهر السقا، "قراءة في عالم ما بعد السابع من تشرين الأول/أكتوبر 2023"، *المستقبل العربي*، عدد 539 (2023).